الباب الثالث

شعر الرثاء لإبن الرومي

الفصل الأول: لمحة عن رثاء

الرثاء هو تعداد مناقب الميت, و إظهار التفجع و التلهف عليه واستعظام عيبه فيه. و من عادت الجاهلية في الرثاء كما قال ابن رشيق في كتابه "العمدة" ضرب الأمثال بفناء الملوك العظام. و الممالك الكثيـــرة, و الأمم القوية و الوعول سنعة في قلل الجبال, و الأسود الخادرة في الغياض, و بحمر الوحش تصرفة بين القفار, و بالنسور و العقبان و الحيات لبأسها و طول أعمارها.[1]

الشعر في المراثي انما يقال على الرفاء, فيقضي الشاعر بقوله حقوقا سلفت, او على السجية إذا كان الشاعر قد فجع ببعض اهله, أما أن يقال على

[1] احمد الإسكندرى و الشيخ احمد مصطفى عنانئ بك,الوسيط في الأدب العربي و تاريخه,ص,٤٨ الشيخ

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

الرغبة فلا ؛ لأن العرب التزموا في ذلك مذهبا واحدا, و هو ذكر ما يدل على أن الميت قد مات, فيجمعون بين التفجع و الحسرة و الأسف و التلهيف والاستعظام, ثم (يذكرون) صفات المدح مبللة بالدموع, حتى قال قدامة: انه ليس بين المرثية و المدحة فصل إلا أن يذكر في اللفظ ما يدل على أنه لهالك ؛ و من أجل ذلك لم يتبسطوا في معاني الرثاء.[٢]

و الفجيعة من (الموجودات) و ما يـــتبع ذلك من درس العواطف المحزنة و البحث عن أماكن الألم في نفس الإنسان, كما كان ذلك عند اليونان, إذا كان من شعرائهم من تحصص للفواجع و عرف بصفات الحزن كأوريبيذس و غيره, وكما كان عند العبرانيين, و هم ابكى الناس, حتى إن الرثاء من الصفات المميزة لأشعارهم ؛ و يرجع ذلك النقص في العرب إلى أسبابه الطبيعية مما يتعلق بالبداوة والأخلاق التي تكون عنها, و قد مر ذكر ذلك في مواضع كثيرة.[٣]

---

[٢] مصطفى صادق الرافعى,تاريخ الادب العربي,ص,١٠٧
[٣] مصطفى صادق الرافعى,تاريخ الادب العربي,ص,١٠٧

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

و من تلك الأخلاق كانوا لا يرثون قتلى الحروب, لأنهم ما خرجوا إلا ليقتلوا, فإذا بكوهم كان ذلك هجاء أو في حكمه ؛ ولكن الرثاء لمن يموت حتف أنفه ؛ أو يقتل في غير حرب من حروب التاريخ, كالغارة و نحوها, فحينئذ يعددون المآثر و يبالغون في الفجيعة كأن هذا الموت غير طبيعي فيمن يستحق أن يموت.[٤]

و مر في الكلام عن شواعر العرب شيء عن موضعهن من الرثاء, لأنهن أشجى الناس قلوبا عند المصيبة و أشدهن جزعا على هالك ؛ لما ركب في طبعهن من الخور, و في قلوبهن من سهولة الانخلاع. أما الرجال فلم يشتهر منهم بالرثاء إلا أفراد عضتهم المصيبة بما لم يبرأ من الألم فصاحوا تلك الصيحة التي ينجدب معها القلب ال الشفتين.[٥]

---

[٤] مصطفى صادق الرافعى,تاريخ الادب العربي,ص,١٠٧

[٥] ١٠٨ مصطفى صادق الرافعى,تاريخ الادب العربي,ص,

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

و بديهي أن الرثاء لا يتعلق بالنسيب كما يتعلق به المدح و الهجاء و غيرهما ولكن وردت للعرب في ذلك قصيدة واحدة. قال ابن الكلبي: لا أعلم مرثية أولها نسيب إلا قصيدة دريد بن الصمة:

أرث جديد الحليل من أم معبد بعافية و أخلفت كل موعد[٦]

و مما حدث بعد الإسلامفي طريق الرثاء الجمع بين التعزية و التهنئة, و هو محصوص بالخلفاء في تعزية من يلي عهد أبيه منهم, و كان أول ذلك حين مات معاوية و قدم يزيد ولده فلم يقدم أحد على تعزية, حتى دخل عليه عبد الله إبن همام السلولي فأنشده ففتح للناس بعده باب القول, و قد روى ان رشيق هذه الأبيات في العمدة و وطأ لها بسجعات نسبها للسلولي, و الصحيح أن له الشعر وحده, أما السجع فهو لعطاء بن أبي صيفي الثقفي, و هو من الخطباء الذين فتح لهم الكلام بذلك الشعر و لما توفي عبد الملك و جلس ابنه الوليد دخل عليه الناس و هم لا يدرون أيهنئونه أ يعزونه؟ فأقبل غيلان ابن مسلمة الثقفى, فسلم عليه ثم خطب معزيا و مهنئا. و كذلك لما توفي المنصور

[٦] مصطفى صادق الرافعى,تاريخ الادب العربي,ص,١٠٧

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

دخل ابن عتبه مع الخطباء على المهدي فسلم و نخا هذا المنحى, و قد روى كلامهما الجاحظ في الجزء الأول من البيان.[٧]

و كان للرثاء شأن في أول الدولة الأموية, حتى كانت المراثي يناح بها نوحا على القتلى و الأموات, و أشهر من عرف بذلك الغريض المغني, و قد ربته الثريا بنت عبد الله بن الحارث و علمته النوح بالمراثي على من قتله يزيد ابن معاوية من أهلها يوم الحرة, و كان المشهور قبله بالنوح ابن سريج المغني, و قد عدل بعد ظهور الغريض الى الغناء فعدل معه الغريض اليه ثم كان بنو أميه يشترطون في تقريب الراوية منهم أن يكون لمراثي العرب.[٨]

و كان القائم برثاء المتقدمين منهم النصيب الشاعر, فكان إذا قدم على هشام ابن عبد الملك أخلى له مجلسه واستنشده مراثي قومه, فإذا أنشده بكى و بكى معه. و كان يتقرب بذلك الى ملوكهم و أمرائهم, حتى إنه لما دخل على عمر بن عبد العزيز و هو أمير المدينة ابتدأه في الاستئذان أن ينشده من مراثي أبيه

---

[٧] مصطفى صادق الرافعى,تاريخ الأدب العربي,١٠٨

[٨] مصطفى صادق الرافعى,تاريخ الأدب العربي,ص,١٠٩

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

عبد العزيز, و قد عارض بني أمية في الولع بالرثاء شعراء الطالبيين و من نبغ بعد ذلك من هذه الشيعة الى اليوم.[٩]

ومن طرق الرثاء التى أحدثها المتأخرون, ما يرثون به الدواب و الأثاث و الأدوات, و قد مرت الإشارة الى ذلك فيموضع آخر ؛ ولكن القصيدة ال احتذوها في ذلك إنما هي القصيدة الهرية الشهيرة التي نظمها ابن العلاف الشاعر المتوفى سنة ٣١٨, و كان له هر يأنس به, وكان يدخل أبراج الحمام التي الجيرانه و يأكل فراخها, و كثير ذلك منه فأمسكه أربابها فذبحوه, فرثاه بها, و قيل إنه إنما رثى بها عبد الله بن معتزي و خشي من الإمام المقتدر لأنه هو الذي قتله.[١٠]

فن سببها الى الهر و عرض به في أبيات منها, و يقال بل كنى بالهر عن الوزير أبي الحسن بن الفرات أيام محنته, لأنه لم يجسر أن يذكره و يرثيه. و قيل غير ذلك, و هذه القصيدة في ٦٥ بيتا, و هي معدودة من أحسن الشعر

---

[٩] مصطفى صادق الرافعى,تاريخ الأدب العربي,ص,١١٠-١٠٩

[١٠] مصطفى صادق الرافعى,تاريخ الأدب العربي,ص,١١٠

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

وأبدعه, و قد نقل زبدتها ابن خلكان في تاريخه, وللعلاف قصائد أخرى في الهر أيضا و لكن هذه أشهرها.[١١]

من بعده هذا المدب, فعارض ابن العميد القصيدة الهرية ص فناعة, و نقل الثعالبي شيئا من قصيدته في اليتيمه, و لما نفق برذونه أبي عيسى المنجم بأصبهان و كان قد طالت صحبته له, أو عز الصاحب ابن عباد الى الندماء المقيمين في حلبته أن يعزوا أبا عيسى و يرثوا برذونه, فقال كل منهم قصيدة فريدة, نقل الثعالبي مختارات منها, ثم شاع هذا النوع بعد ذلك و تقلبوا في أغراضه.[١٢]

---

[١١] مصطفى صادق الرافعى,تاريخ الأدب العربي,ص,١١٠
[١٢] مصطفى صادق الرافعى,تاريخ الأدب العربي,ص,١١٠

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

الفصل الثاني: مضمون الرثاء لإبن الرومي

رثاء ابن الرومي في أهله و دويه حافل باللوع و عميق الزوات. فكأني به يشعر بالمصاب شعورا يستولي على جميع قواه, و إذا به يذكر و يتمثل طيف الفقيد, و يتصور ساعاته الإخيرة, و يرافقه في نزاعه, فينازع معه, و ينكفىء على الألم ماضغا, محللا, فيزداد ألما بقدر ما يمضغ و يحلل.[١٣]

يستهل ابن الرومي قصيدته هده بمخاطبة عينيه, فيطلب منهما رفدا من الدموع لأنها تشفيه من بعد ما به. فلا شيء يعدل راحة البكاء عند الشقاء. وابن الرومي لا يتغزى كما يتغزى سائر الناس, إنما عزاؤه ان يبكي و يتأمل وقع المصاب فيه, و هو في تفجعه على ولده الأوساط لا يؤثره على أخويه, فقد جعله واسطة العقد لأنه الأوساط فقط.[١٤]

و يبديهي أن يكون حزنه عظيما لأن ولده الأوساط هو الحبة الأولى التي انتثرت من حبات العقد و ربما عظم شعوره بالمصيبة ان ابنه مات لما بدأت

---

[١٣] جورج عبدو معتوق,ابن الرومي,ص٩٧
[١٤] جورج عبدو معتوق,ابن الرومي,ص٩٧

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

ملامح الرشد تظهر عليه فاذا بالمشاركة بينه و بين أبيه تضاعف محبته أبيه له, حتى إذا فقده كان احساسه بفقده عظيما.[١٥]

ثم يصف لنا كيف قضى الصغير نحبه بترف شديد الح عليه حتى أحاله من حمرة الورد الى صفرة الزعفران. و كأن شاعرنا يرغب في تعذيب نفسه كلما تذكر احتضار ولده, لأن في هذا التذكر ما يشعل الحسرة. فالإنسان يتوجع عندما يفكر في توجع من يحب, فليس تصوير ابن الرومي لولده و هو يترف إلا مدعاة لزيادة لوعته.[١٦]

فقد كان «نفسا تساقط أنفسا» و لا يفوت ابن الرومي ان يذكر ما يشبه الصراع بينه و بين الموت, فإذا لعن المنية فلأنه يعترف بهزيمته في صراعه لها, فقد غضب ولده ولا شيء يمكن ان يعين الإنسان على ظلم الحوادث سوى البكاء.[١٧]

---

[١٥] جورج عبدو معتوق,ابن الرومي,ص٩٧
[١٦] جورج عبدو معتوق,ابن الرومي,ص٩٧
[١٧] جورج عبدو معتوق,ابن الرومي,ص,٩٨

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

ثم يقبل ابن الرومي على معنى في الرثاء جديد, فهو يأبى عزاء من يعزونه بأن ولده أصبح في جنة الخلد, و بأن له في ولديه الباقيين متعة يستغني بها عن الذاهب منهم, لا لأنه يبغضهما بل لأنه لا يلقى فيهما ذلك العوض, فلكل من الأولاد منزلته و محبته, فكما يشعر بوجود هذه المنزلة و هذه المحبة ازاءهما يشعر بفقد انها فيتفجع, و الأولاد عنده كالحواس, فهل يعقل أن يتعزى الأ عمى عن ذهاب بصره بأنه يسمع؟[١٨]

ثم يعود الى مناجاة ولده و حث عينيه على سكب الدمع فكيف تبخلان بالدمع و هو الذي جاد على التراب بأغلى من الدمع. ثم يروعنا آخر شيء, باعتراف من تلك الاعترافات الصادقة الجريئة التي يعري بها الانسان دخيلة نفسه, فيقول: ان ولديه الباقيين ينغصان عليه و لا يعزيانه, و هو يتألم و يتحرق كلما رآهما يلعبان في معلب أخيهما المفقود.[١٩]

---

[١٨] جورج عبدو معتوق,ابن الرومي,ص,٩٨

[١٩] جورج عبدو معتوق,ابن الرومي,ص,٩٨

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

يبدأ ابن الرومي هذه المرثية بخطاب عينيه قائلا: إن بكاء كما يخفف شيئا من حزني و إن كان لا ينفعني برد ابني إلى الحياة. و انا أطلب منكما أن تبكيا كثيرا لأن الذي مات هو في مقامكما عندي (و لو ان بصري ذهب لما حزنت عليه أكثر مما أنا الآن حزين على ولدي) ثم يدعو ابن الرومي على الموت لأنه يتخير, أول ما يتخير أعز الناس على بن الإنسان.[٢٠]

و يذكر ابن الرومي أن ابنه مات باكرا, ولكن بعد أن بدأت مواهبه تتفتح. ثم يبدأ ابن الرومي بوصف المرض الذي مات به ابنه, نزيف لا ينقطع دبل الطفل بسببه قليلا قليلا إلى أن مات. و يعلن ابن الرومي أن الموت اغتصب ابنه إغتصابا وأنه لم يكن ليضى بأن يموت ابنه مع العلم بأن الآباء قد وعدوا الجنة على أولادهم الذين يموتون صغارا.[٢١]

ثم يندم ابن الرومي على أن كان قد قال إن ابنه الأوساط كان خير أولاده. و يعلن من جديد أن أولاد المرء متساوون في المحبة عنده كأعضاء بدنه

---

[٢٠] الدكتور عمر فروح,المنهاج الجديد في الأدب العربي,ص,٩٧

[٢١] الدكتور عمر فروح,المنهاج الجديد في الأدب العربي,ص,٩٨-٩٧

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

فإن بقاء ولد لا يعوض فقدان أخيه. كما أن العضو إذا قطعىمن الجسم فأن الأعضاء الباقية لا تقوم مقامه.[٢٢]

و يختم ابن الرومي هذه المرثية بصورة بارعة تمس العاطفة مسا مؤلما: في العادة أن الإنسان إذا فقد شيأ من أشياء يملكها. فإن الأشياء الباقية تنسي الإنسان ما فقده. غير أن هذه القاعدة معكوسة تماما فيما يتعلق بالأولاد: إن الإخوة الأحياء لا ينسون الأب ابنه الذي مات, بل يذكرونه به دائما.[٢٣]

ليست هذه القصيدة مرثية كالمراثي المألوفة: تفجعا على الميت و بكاء و نحيبا. انها في الحقيقة قصيدة في الوصف: هي وصف حسي لطفل مريض قبل ان يموت, ثم تحليل نفسي لشعور الوالد المفجوع قبل موت طفله المريض و بعد موته.[٢٤]

أول ما نلاحضه في هذه القصيدة ان المعاني فيها كثيرة متلاحقة و مع ان كثيرا من هذه المعاني قديم معروف في الرثاء كبكاء العينين (عند الخنساء مثلا)

---

[٢٢] الدكتور عمر فروح,المنهاج الجديد في الأدب العربي,ص,٩٨
[٢٣] الدكتور عمر فروح,المنهاج الجديد في الأدب العربي,ص,٩٨
[٢٤] الدكتور عمر فروح,المنهاج الجديد في الأدب العربي,ص,٩٨

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

واختيار الموت لأفاضل الناس. و النفس التي تساقط (بفتح تاء المضارعة : يموت صاحبها موتا باطيئا) او تساقط انفوسا (بضم التاء : يموت بموتها كثيرة حزنا عليها).[٢٥]

و قلة الرضا بموت الأولاد و لو كان أجر الآباء على ذلك كثيرا (كما عرفنا من قبل عند جرير). إلى غير ذلك من معاني الحزن و التفجع و سقيا قبر الميت و طلب السلام و الرحمة له فإن في هذه القصيدة صورا مبتكرة نشير ألى اثنتين منها: الموازنة بين فقدان الحوارج (أعضاء الجسد) و أن بعضها لا يقوم مقام بعض و بين فقدان الأولاد و أن بقاء بعض الأولاد على قيد الحياة لا ينسي الأب بعض أولاده الذين ماتوا.[٢٦]

ثم هنالك الصورة التي تجعل الأولاد الصغار يلعبون في ملاعبهم غافلين عن معنى الموت و عن الألم الذي يتركه موت الأولاد في نفوس الوالدين فيزيد ذلك في حزن الوالدين على الولد الذي فقوده.[٢٧]

---

[٢٥] الدكتور عمر فروح,المنهاج الجديد في الأدب العربي,ص,٩٨
[٢٦] الدكتور عمر فروح,المنهاج الجديد في الأدب العربي,ص,٩٩
[٢٧] الدكتور عمر فروح,المنهاج الجديد في الأدب العربي,ص,٩٩

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id

و كثرة المعاني المتلاحقة في هذه القصيدة و تلك خاصة من أهم خصائص المذهب البغدادي تغطي على الآثار القليلة للصناعة اللفظية, نحو: بعيدا على قرب قريبا على بعد - و عيد و وعد – المهد اللحد (مرتين في بيت واحد) – أبدي و أخفي – و حشة و أنس. و هنالك البيت:

هل عين بعد السمع تكفي مكانه أم السمع بعد العين تهدي كما يهدي؟[٢٨]

و الذي يجعل من هذه القصيدة مرثية بارعة «صدق العاطفة في التعبير عن شعور الوالد المفجوع مع هذا «الصفاء الذهني» في معالجة موضوع الموت, ثم تلك السهولة و الوضوح في سياقة المعاني و رسم الصور الشعرية. ثم إن التحليل النفسي لشعور الوالد المفجوع لا يقل في روعة الرثاء عن تصوير حال الطفل المريض بين أظافر الموت.[٢٩]

و هكذا تتوالى معانية و صوره بأبيات نتبين فيها أبا و شاعرا يرثيان كما نتبين دفء العاطفة و حرارتها على تذويب جميل للكلمات لونا و وقفا وفنا.[٣٠]

---

[٢٨] الدكتور عمر فروح,المنهاج الجديد في الأدب العربي,ص,٩٩

[٢٩] الدكتور عمر فروح,المنهاج الجديد في الأدب العربي,ص,٩٩

[٣٠] جورج عبدو معتوق,ابن الرومي,ص,٩٨

digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id digilib.uinsby.ac.id